العربية و ثنائية العامية و الفصيحة في ضوء اللسانيات الحديثة

الملخص

أ.د. محمد إسماعيل بصل

أستاذ اللسانيات-قسم اللغة العربية-جامعة نزوى

نزوى-سلطنة عمان

m.bassal@unizwa.edu.om

إن ثنائية العامية و الفصيحة قدر اللغات جميعها، و إنه لمن طبيعة اللغة ذاتها تتولد هذه الثنائية، و تصبح حقيقة ناجزة، و بالتالي فلا مناص من قراءة أية لغة عبر هذه الثنائية، إذ إن الثنائيات تتأتى من خصائص اللغة ذاتها منذ نشأت هذه اللغة في رقعة مكانية و حقبة زمانية محددتين ثم انداحت في الأمكنة و الأزمنة كلها، فالاختلاف هو مبتدأ اللغات جميعها و منتهاها.

لعل اللغة العربية هي من أكثر اللغات التي سيطرت عليها ثنائية العامية و الفصيحة منذ نشأتها حتى يوم الناس هذا حت أضحت موضع اهتمام الدارسين و الباحثين و النقاد و اللغويين و الفلاسفة و المناطقة و الرسامين و السينمائيين و المسرحيين، و هي- أي هذه الثنائية – مجال بحث مخصب للناس جميعهم على اختلاف مشاربهم، و ثمة كم هائل من البحوث و الدراسات و السجالات و النزاعات و الجدالات في هذا السياق...و لكن السؤال الذي نطرحه اليوم عبر هذه الدراسة هو التالي: ما الغاية المنشودة من معرفة الخصائص اللهجية للغة بعينها في رقعة مكانية لا تشكل شيئا ذا قيمة حقيقية في رقعة المكان و الزمان لهذه اللغة التي تعد اللهجة متفرعة منها؟ و من هذا السؤال البدهي ستنداح جملة من الأسئلة لن يكون أيسرها: لماذا هذه العصبية اللهجية في وقت تتعرض فيه هويتنا العربية لأعتى الهجمات التي تحملها رياح، أو لنقل أعاصير النظام العالمي الجديد الموسوم ب نظام العولمة المستبد؟

إن الدراسة التي نقدمها في هذا المؤتمر ستسلط أضواء النظرية اللسانية الحديثة على مفهوم اللهجة في اللغة، و على المقولات العلمية و الموضوعية للعلماء العرب القدامى في السياق ذاته، و نبين كيف أن التراث اللغوي العربي قد ساهم في تشييد هذه اللسانيات الحديثة على الرغم من إنكار الباحثين الغربيين للجهود العربية في تأصيل النظرية اللسانية بمختلف تفرعاتها و اتجاهاتها و تياراتها و مناهجها.

و يكفي أن نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر فكرة تداخل اللغات عند ابن جني، و فكرتي البيان و التبيين لدى الجاحظ، و نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني.

و من أهم النتائج التي توصلنا إليها في محصلة هذه الدراسة هي : للعربية مقاييس و ضوابط و أسس تحدد الفصيح و العامي و المعرب و الدخيل، فلا غرو من استخدام العامية شريطة أن تبقى في حدود الاستعمالات اليومية الفردية.....و لا يمكن عد الفصيحة و العامية ازدواجية لغوية بل هي ثنائية ليس غير.....

العربية و ثنائية العامية و الفصيحة في ضوء اللسانيات الحديثة

أ.د. محمد إسماعيل بصل

قسم اللغة العربية-جامعة نزوى-سلطنة عمان

m.bassal@unizwa.edu.om

وُجدت اللغة عندما وُجد الإنسان، فارتبط بها و ارتبطت به، و ارتقى بها و ارتقت به، ثم طورها و ساهمت في تطوره، و نشأت هذه الرابطة العضوية بينهما، و صار يَعرف و يُعرف بها و تُعرف به حتى تماهيا تماما، فيُقال العربي نسبة إلى العربية، و الإسباني نسبة إلى الإسبانية و الفرنسي نسبة إلى الفرنسية....إلخ فلا غرو أن تتعلق الشعوب بلغاتها؛ تدافع عن سلامتها و تدفع هناتها، فهي – أي اللغة – ليست نظاماً من العلامات المتشابكة و المتعالقة فيما بينها، و تقوم بوظائف التواصل و التعبير و التأثير و غيرها و حسب؛ بل إنها مؤسسة اجتماعية كبرى تضم في ثناياها مجمل القواعد و الأعراف و الطقوس و البنى الثقافية و الفكرية و الأيديولوجية التي يُختصر فيها ما يُعرف ب(عبقرية الشعوب). **فلكل مجتمع عبقريته التي تكتنزها لغته، و انطلاقا مما سبق يمكن القول إنه ليس ثمة لغات متقدمة و أخرى متخلفة، و لغات سهلة و لغات صعبة، و لغات جميلة و أخرى قبيحة....إن اللغات تنضح بما لدى الناطقين بها من خبرات حضارية و قضايا معرفية و مكتسبات علمية.**

لقد دأب الدرس اللغوي -قديما- على تقسيم اللغات، و البحث عن نشأتها إلى أن تاه هذا الدرس في غياهب المفاهيم الأسطورية؛ و التعاليم الفقهية، و بعض مكتسبات علوم الأحياء و الآثار و الأنتربولوجيا، و دخل في نزاعات و جدالات لا تزال معالمها ظاهرة في دراسات بعض اللغويين و النقاد المحدثين حتى يوم الناس هذا.

إن اللغات تتجاور و تتحاور و تتموضع مع بعضها في مجموعات، و الشعوب تفعل الأمور عينها و تتعارف و تتثاقف و تتواصل في جماعات؛ و لم يفت علماء اللغة تصنيف اللغات في مجموعات متكئين في ذلك على قانون التطور و الارتقاء، فعُرفت اللغات غير المتصرفة أو العازلة و اللغات اللصيقة أو الوصلية، أو اللغات المتصرفة أو التحليلية، و تتصدر اللغة العربية من بين جاراتها السامية المجموعة الثالثة.

العربية، و سؤال الهوية :

إن للغة العربية تاريخا سحيقا قد لا تعيه ذاكرة المؤرخ، و قد لا يُنصفه بيان مؤلف، و قد تُنقص من قدره سعة اطلاع مستشرق.

من ها هنا تتأتى أهمية اللسانيات الحديثة التي تجاهلت التاريخ و التأريخ و عدت اللغة حاضنة لهما، و ابتعدت عن التوقيف و الاصطلاح في النشأة و تعاملت مع اللغة بوصفها نظاماً ناجزاً يتطلب توصيفاً علمياً دقيقاً؛ و اللغة بأنساقها كلها هي مادة اللسانيات و موضوعها، و ليس اللغة الطبيعية فقط كما أراد فيرديناند دو سوسور، و عندما نقول مادة فإننا نقصد قابليتها للإمساك و التعاطي معها حسب قواعد و مناهج و أدوات، و لن يفيدنا القول بعد الآن إن اللغة العربية أرقى اللغات و أجملها، و إنها فعلت إبان الفتوحات الإسلامية، و فُعل بها إبان الحروب الاستعمارية...إن السؤال الكبير الذي يطرح نفسه اليوم هو كيف ندرس العربية دراسة علمية موضوعية تبعدنا عن الخطابات الإنشائية التهويلية و الانفعالية و الأيديولوجية التي لم و لن تقدم أية قيمة مضافة للغة الضاد؟

لقد كثر في الآونة الأخيرة التحريف في ضبط اللغة العربية ضمن مجال استخدامها الفصيح و ليس العامي و حسب، فبعد أن فشلت المحاولات اللاهثة من أجل ترسيخ اللهجات العربية و إحلالها محل الفصيحة لجأ كثيرون عن قصد أو عن غير قصد إلى استخدام الفصحى لهجياً، أي إلى تثبيت الأخطاء اللغوية في الكتابة و النطق، فراحت كتب الأدباء تعج و تضج ليس باللهجات المحلية لبلدانهم و مدنهم و قراهم و أحيائهم بحجة الاقتراب من الواقع و محاولة نسخه و حسب؛ و إنما باللغة العربية الفصيحة العرجاء، ضاربين بعرض الحائط قواعد تلك اللغة و سنن بنائها، و على مشجب الأخطاء المطبعية و عدم توفر المدقق اللغوي أُلقيت هذه الممارسات كلها، أما ما ينطق من هذه اللغة على ألسنة المتكلمين شفاهياً عبر وسائل الإعلام و وسائل التواصل الاجتماعي فإنه أشد لحناً و أكثر قبحاً، و نحن هنا لا نذكر الوسائل الإعلامية التي كرست العاميات حتى في برامجها العلمية و الثقافية، بل تلك الوسائل التي تقرأ الأخبار و تبث برامجها بالعربية الفصيحة؛ فالتسكين سيد الموقف، و لا يجرؤ مقدمو البرامج و مذيعو النشرات الإخبارية تحريك الكلمات رفعاً أو نصباً أو جراً، و إن فعل أحدهم فإن قبور علمائنا القدامى تهتز و ترتجف خوفاً و إشفاقاً على هذه اللغة التي قعدوها و شرحوها و وصفوها و وضعوها بين أيدي أصحابها ناصعة مبنى و معنى و اشتقاقاً و تركيباً.

إن المشكلة ليست في اللغة العربية بل في الناطقين بها الذين يعانون- و على امتداد الرقعة الجغرافية العربية برمتها- من الاستخدام السيء للفصحى مع تفاوت في نسبة السوء من مكان إلى آخر إذ إن ثمة بعض الأقطار العربية ما تزال تعاني حتى الآن من أثر الاستعمار على المستوى اللغوي، ففي الجزائر على سبيل المثال ما يزال الوضع اللغوي معقدا من تعدد اللغات المستعملة فثمة" لغة المنشأ(عربية دارجة أو أمازيغية) .....و اللغة العربية الفصحى(لغة المدرسة) و الفرنسية (لغة المدرسة) و الهجين اللغوي الذي يُسمع في التجمعات السكانية "(1) و مثل هذه التعددية متوفر في المغرب و تونس و معظم الأقطار العربية .

لعله من الحقائق المقررة القول إن اللغة العربية تعيش تحديات كبيرة و خطيرة، و هذا ليس جديداً أو طارئاً ، فاللغة كما هو معروف هوية الناطقين بها، و عندما تتعرض الأمة لأخطار كثيرة تحدق بها من كل حدب و صوب، فإنه لمن الطبيعي أن تتعرض لغة هذه الأمة للأخطار ذاتها، و لكن ما يمكن أن

نقوله في هذا السياق هو أن المجتمع الذي يقدم الاختراعات في مجال ما؛ يحول المجتمعات الأخرى إلى مجتمعات متلقية تبحث أول ما تبحث عن تسميات لهذه الاختراعات ، و هنا يظهر التمايز بين لغات هذه المجتمعات، لأن بعضها يمتلك خصائص قادرة على استيعاب متطلبات التطور و الازدهار العلميين، و تتسم بالسعة و النماء، و تتبوأ اللغة العربية منزلة مرموقة بين هذه اللغات، أما بعضها الآخر فإنه لا يمتلك مثل هذه الخصائص، و عندئذ فإن لغة المجتمع المنتج سوف تهيمن و تطغى، و قد تلغي لغة المجتمع المستهلك تماما، و عندنا في التاريخ الحديث بله القديم أمثلة كثيرة في هذا الصدد؛ إلا أن **اللغة العربية و على الرغم مما اقترضته قديماً و حديثاً، لم تضمحل أو تضعف، و الدليل هو أن هذه اللغة وصلتنا- بعد قرون طويلة من الاحتلال و الاستعمار و حملات التشويه و الإلغاء و التتريك و الفرنسة- قوية و غنية و سليمة و محافظة على أحكامها و قواعدها و سننها، فالخصائص التي تمتلكها العربية في بنيتها تجعلها قوية و متجددة.**

الحل كامن في اللغة ذاتها

إن البحث عن تسميات جديدة لمفهومات جديدة يجب أن ينجز في إطار الحقل الاشتقاقي للكلمة، والحقل الدلالي للمفهوم، فالحل كامن في اللغة ذاتها، **ولعل اللغويين العرب القدامى وعوا تماماً الوظائف البنيوية للغة، وتعاملوا مع هذه الوظائف بمعرفة لغوية على الرغم من أن العربية هي التي كانت تقترض اللغات الأخرى يومئذ، أما في أيامنا فالعربية تقترض أكثر مما تقرض،** ومع ذلك فإن أحداً لا يرجع إلى هذه الخصيصة التي تتيحها اللغة ذاتها ناهيك عن الأنواع المتعددة التي تقدمها خصيصة الاشتقاق؛ وهذا ما يجعل العربية متفردة في قوتها فهل الناطقون بها أقوياء اليوم؟

يلجأ الباحثون المحدثون في الأغلب الأعم إلى التعريب قبل الاشتقاق، والتعريب هنا بمعنى الترجمة أو النقل أو التوليد، وليس بمعنى أن المعرب هو كلمات أعجمية باعتبار الأصل، وعربية باعتبار الحال، ولا حتى بمعنى أن تتفوه به العرب على منهاجها، بمعنى أن ما عربته العرب صار عربياً، بل في زعمهم أن التعريب هو إضافة ال التعريف في أحسن الأحوال للكلمات الأجنبية مثل: التلفزيون والراديو والكمبيوتر والسينما ... مما لا شك فيه أن العرب يغيرون الأسماء الأعجمية بالإبدال، فعندما يضطرون إلى استعمال كلمات لا تنسجم بتركيبها الصوتي مع الكلمات العربية، يلجأون إلى تبديل حروف هذه الكلمات حتى تنسجم مع التركيب الصوتي لبنية الكلمة العربية (2). أي بمعنى آخر، عندما نواجه لفظاً أجنبياً ونتعرف على مفهومه ولا نقدر على اختصار هذا المفهوم بلفظة عربية، فإننا نعرب اللفظة الأجنبية، أي نكسبها وزناً من أوزان العربية ونخضعها لأحكام العربية. لكن النتيجة التي توصل إليها ابن جني في القرن الرابع الهجري، ورددها من بعد السيوطي وغيره هي التي تختصر إشكالية التعريب برمتها، وتضعنا – نحن أبناء القرن الواحد والعشرين – أمام حقيقة لغوية لا يستطيع العلم إنكارها، بل إنها تصفع كل من يزعم أنه المدعي العام الذي يصرخ في وجه كل دخيل، معلناً أن صفاء اللغة هي قضيته "إن ما قيل على كلام العرب فهو من كلام العرب، وكل ما عرب من ألفاظ أعجمية صار عربياً، لأن العرب أجرته مجرى أصول كلامها". (3)

ثمة إذن مسائل و أبنية و أوزان و أحكام في العربية يقاس عليها الكلام الأجنبي فيصبح كلاماً عربياً، هذا ما قاله الخليل واستخدمه سيبويه ونظر له ابن جني، فهل نخشى على اللغة أكثر من هؤلاء العلماء، بل

هل يخشى على العربية وهي التي تملك أحكاماً وضوابط ومقاييس قادرة على استقبال وهضم كل ما دخل وما سيدخل إليها ؟.

إن مقدرة لغة ما على تمثل الكلام الأجنبي تعد مزية وخصيصة لها إذا هي صاغته على أوزانها وأنزلته أحكامها، وجعلته لا يتجزأ من عناصر التعبير فيها.

وهناك خصيصة أخرى في اللغة العربية وهي خصيصة المجاز بوصفه طريقة لاستخدام اللغة في معنى يختلف عن المعنى الذي وضعت له أساساً، وترجع هذه الطريقة إلى علم المنطق باعتمادها على نقل المعنى وتوسيعه أو تضييقه. إن المجاز هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له أصلاً؛ أي نقله من دلالته المعجمية الأصلية إلى دلالة علمية مجازية أو اصطلاحية جديدة، على أن تكون هناك مناسبة بين الدلالتين، ويصبح المجاز وسيلة مهمة تستعين بها اللغة كي تطور نفسها بنفسها (4).

اللهجات والتطور اللغوي

لا أحد يشك - في الواقع – بأن الدرس النحوي العربي – مثل الدرس الصوتي والصرفي – يمثل دراسة لغوية وصفية فذة، قلما نجد مثيلات لها عند الشعوب الأخرى، **ولكن الثغرات والشوارد التي تسربت إلى هذا الدرس عن طريق تشعبات لهجية، هي التي جعلت بعض الدارسين القدامى والمحدثين يرون خللاً منهجياً واضحاً أفقد النحو موضوعيته، وشرذم اللغة الفصيحة، ووضح قضية العاميات.** "فالتحديد المكاني والزماني للفصاحة والاحتجاج (...) سبب خلطاً بين اللهجات والعصور والمستويات، وإخلالاً كبيراً بما يمكن أن نسميه المنهج الوصفي في استنباط القواعد اللغوية، لذلك نجد القاعدة نفسها ونقيضها أو ما يشذبها. فاللغة السليمة الفصيحة لا ترتبط بمكان أو زمان، ولا بجنس، بل الدربة والمران والمعاناة هي التي تنتج لغة سليمة خالية من الخطأ، عدا أن التحديد الزماني امتدت فترة الاحتجاج فيه إلى منتصف القرن الرابع الهجري (350 ه)" (5).

بل إن اللغويين العرب لم يضمنوا شواهدهم بيتاً واحداً لشاعر عاش بعد ابن هرمة المتوفى سنة 76 للهجرة. (6). أليس هذا المنهج عيباً كبيراً في الدرس اللغوي وخطأ فادحاً في أصول دراسة اللغة ؟ ألم تفشل جميع المحاولات في تيسير تعلم العربية عبر طرائق تم اقتراحها قديماً وحديثاً في سياق تبسيط قواعد النحو؟ " إن الذي نراه هو أننا لم نحصل على النتيجة المطلوبة في رفع مستوانا اللغوي عن طريق تيسير النحو لأننا لم نسلك الطريق التي يجب أن تسلك، ذلك أننا دخلنا ميدان اللغة من باب النحو، وللغة باب لا يولج إلا منه: إنه باب الحفظ والاستعمال، حفظ النماذج اللغوية والأدبية السليمة واستخدامها الحي الدائم. فاللغة تقوى بالاستعمال اليومي وتطوى بالترك والإهمال. اللغة لا يحييها النحو إنما يحييها التداول ويحييها أن تكون رطبة على ألسنة أصحابها. فهل يستطيع النحو أن يجعل اللغة حية وخصبة ؟ لا نظن ذلك. ليس العيب في علم النحو بل هو لأن ليست هذه مهمة النحو ولا غايته أصلاً، ولا يصح أن نحمله ما فوق طاقته واقتداره. إن النحو قوانين كما يقول ابن خلدون (.....) فالنحو قانون و اللغة حياة، و القانون لا يستطيع أن يصنع الحياة وحده، لكنه واحد من العناصر الأخرى التي تسهم في ذلك."(7)

إن اللغة كائن حي لا يمكن أن يحيا إلا عبر الحركة، وتستدعي هذه الحركة سقوط كلمات و ولادة كلمات أخرى، و لكل كلمة مفردات من نوعها تلتقي معها في مبناها و معناها، فمنها ما يولد و منها ما يصيبه الجمود و منها ما يموت، و أمام هذا الواقع اللغوي فإن أفضل طريقة و أكثرها فائدة و متعة هي الإفادة من اللسانيات الحديثة في قراءة النصوص و تحليلها و تأويلها، إذ إن التصدي لتحليل نص تحليلا

لسانيا يعني بالضرورة تقديم توصيف علمي موضوعي للمستويات اللغوية بدءاً من المستوى الصوتي مروراً بالمستوى الصرفي و التركيبي و الدلالي وصولا إلى المستوى التداولي حيث تتمظهر جماليات اللغة في الاستخدام و توظيف الحجاج للإقناع و التأثير.

اللهجات متفرعة من الفصحى

لا تعد قضية تشعب اللهجات واختلافها عيباً بحد ذاتها، لأنها قضية عامة تخص اللغات كلها، وبخاصة تلك التي تنتشر في مساحات واسعة؛ ففي الفرنسية ثمة لهجات متباينة، وما يتكلمه البروتاني لا يفهمه الباريسي، وما يستخدمه المارسيلي من كلمات يختلف عما يستخدمه الليوني، أما بالنسبة للعامية المسماة بالأرغو فإنها غريبة عن اللغة الأصلية، وهناك أصوات كثيرة ترتفع اليوم في فرنسا للارتقاء باللغة الفرنسية، بدءاً من تغيير القواعد الإملائية التي لا تتناسب مع أصوات اللغة، وانتهاءً بمعاقبة من يكتب أو ينطق إعلامياً بغير الفرنسية (مصطلحات رياضية أو فنية أو سياسية ...). مع العلم أن هناك كلمات كثيرة ومنها كلمات عربية تدخل القاموس الفرنسي عندما تشعر اللغة أنها بحاجة إليها ، مثل الجهاد والمجاهدين والفدائيين وكيف كيف ومشوي وتبولة وسواها، فالفرنسية غير عاجزة عن نقل هذه الكلمات ولكن استخدامها على هذه الصورة هو نوع من التأكيد على خصوصيتها.

أما فيما يخص العربية فالكلمات الأجنبية غير المعربة، أي تلك التي لم تخضع إلى قواعد التعريب وشروطه أكثر من أن تحصى، فكلنا يستخدم كلمة (تلفزيون) مع سبق الإصرار والتقصد، مع أننا نعلم أن ثمة كلمة عربية مرادفة لمفهوم هذا الجهاز وهي كلمة (الرائي). ولنفترض أن ترجمة الكلمة الأجنبية بالرائي غير موفقة، وهي فعلاً غير موفقة، لأن صاحبها لم ير من الكلمة إلا جذرها الذي يدل على الصورة، مع العلم أن هذه الصورة مرتبطة بالزائد (تيلي) الذي يدل على البعد، وفي هذه الحال نلجأ إلى التعريب بإكساب الكلمة وزناً من أوزان العربية، فنقول (تلفاز). أما إذا ابتعدنا عن خصائص العربية، وأقحمنا الكلمات الجديدة إقحاماً واخترعنا صيغاً لم تسمع بها العرب قديماً وحديثاً، فإننا نقول تلفزيون. أي أننا تركنا كل الإمكانات التي تقدمها لنا اللغة من أجل نقل صحيح لمصطلحات مستحدثة. فنحن مع أن اللغة تتطور، بل لا بد لها من التطور، و لكن لا بد أيضا من مراعاة خصائص اللغة ذاتها من أجل تطور مفيد و مخصب؛ إن التطور لا يعني بالضرورة التقدم و الازدهار فالانتقال من طور إلى طور إذا كان اعتباطياً لا يعني إلا التأخر. عندما نعرف أن كلمة هاتف تعبر تماما عن مفهوم تليفون لأن هذه الكلمة وردت في القرآن الكريم و على ألسنة الأعراب الفصحاء و معناها أن نسمع صوتا من دون أن نرى صاحبه، ثم نستعمل بدلا منها لفظة تليفون ، هذا يعني أننا نضع خصائص لغتنا على الرف ، و هذه هي الفوضى بعينها، و هي أشد خطورة من ظاهرة اللهجات، **فاللهجات مهما تطورت و تغيرت فإنها متفرعة من الفصحى و متأثرة بها**. لنمعن النظر في كلمة (رجل)و استخداماتها اللهجية نجد أنها جميعها متفرعة من اللفظة الفصيحة مثل راجل و رجال و ريال و راكل إلخ و قولنا(من أين)تستخدم لهجيا من وين و منين و قولنا(أي شيء بودك) تستعمل أيش بدك و شو بدك و شنو بدك و عن (السفح) يقولون السحف و عن (السلحفاة)السلحفة و الزلحفة و عن(الصفر) يقولون السفر إلخ " روى الأصمعي: اختلف رجلان في الصقر، فقال أحدهما (الصقر) بالصاد و قال الآخر (السقر) بالسين، فتراضيا بأول وارد عليهما، فحكيا له ما هما فيه فقال : لا أقول كما قلتما، إنما هو (الزقر) و لو طلب الثلاثة من شخص رابع تسمية لحصلوا على كلمة رابعة دون شك" (8). علق ابن جني على هذه الحكاية بقوله " أفلا ترى إلى كل واحد من الثلاثة كيف أفاد في هذه الحال إلى لغته لغتين أخريين معها؟ و هكذا تتداخل اللغات

تعد فكرة تداخل اللغات التي ذكرها ابن جني جوهرية و أسيّة و مبدئية تفرضها طبيعة اللغة ذاتها، و ظاهرة اللهجات معروفة منذ نشأة اللغة، و ستبقى مستعملة طالما أن هناك أشخاصا يتكلمون، و في هذ السياق لا بد من القول إن الطفل الذي يسمع اللغة الفصيحة فإنه سوف يكتسب حتما هذه اللغة و يفهمها و يتواصل و يتفاعل بها، و لا مجال للقول إن العامية أسهل من الفصيحة و أيسر، و ها هنا تكمن مهمة التعليم و مهمة أجهزة الإعلام المكتوبة و المنطوقة و المرئية؛ حتى لا ينتفض من جديد أولئك الذين قالوا إن العربية صعبة عويصة يصعب تعلمها و التعامل معها، لتحل العاميات محلها لأنها سهلة و متداولة. صحيح أن نواميس اللغات تقتضي أنه متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض، و تكلم بها طوائف مختلفة من الناس، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمدا طويلا ، و لكن لما كانت العربية الفصيحة هي لغة الكتابة و لغة الدين في هذه الأماكن كان من الضروري أن تخف أوجه الخلاف بين تلك العاميات، و لقد فشلت كل الدعوات لاعتماد العاميات بفضل القرآن الكريم وأبناء هذه الأمة العربية البررة الذين خاضوا معارك علمية و فكرية و ثقافية و قتالية حفاظا على هذه اللغة الفصيحة الشريفة، من دون أن تطوى العاميات أو تزدرى .

الفصيحة و العامية ثنائية أم ازدواجية ؟

إن ثنائية العامية والفصحى قدر اللغات جميعها، ومن طبيعة اللغة ذاتها تتولد هذه الثنائية، وتصبح حقيقة ناجزة، وبالتالي فإنه لا مناص من قراءة أية لغة عبر هذه الثنائية، إذ إن الثنائيات من خصائص اللغة منذ نشأت هذه اللغة في رقعة مكانية وحقبة زمانية محددتين ثم انداحت في الأمكنة والأزمنة جميعها، فالاختلاف هو مبتدأ اللغة ومنتهاها.

ولعل اللغة العربية هي من أكثر اللغات التي سيطرت عليها ثنائية العامية والفصحى حتى أضحت موضع اهتمام الدارسين والباحثين والنقاد واللغويين والفلاسفة والمناطقة والرسامين والسينمائيين والمسرحيين؛ وهي، أي هذه الثنائية، مجال بحث مخصب للناس جميعهم على مختلف مشاربهم، وثمة كم هائل من البحوث والدراسات والسجالات والنزاعات في هذا السياق؛ والسؤال الذي نطرحه اليوم عبر هذه الدراسة هو التالي: **ما الغاية المنشودة من معرفة الخصائص اللهجية للغة بعينها في رقعة مكانية لا تشكل شيئاً ذا قيمة حقيقية في رقعة المكان والزمان لهذه اللغة التي تعد اللهجة متفرعة منها ؟**

من هذا السؤال الكبير ستنداح جملة واسعة من الأسئلة لن يكون أيسرها هذا السؤال: لماذا هذه العصبية اللهجية في وقت تتعرض فيه هويتنا العربية لأعتى الهجمات التي تحملها رياح، أو لنقل أعاصير النظام العالمي الجديد الموسوم ب (نظام العولمة الاستبدادي) ؟ ولن يكون صاحب هذا السؤال بمنأى عن أسئلة التقريع والاستنكار والاستهجان والاستعواذ التي ستنهار على رأسه من كل حدب وصوب، وحتى من أولئك الذين لا تربطهم بالعربية الفصيحة سوى رابطة الانتماء الرقمي أو الاسمي، والذين يشبه حالهم حال ذلك الشخص الذي سماه أبوه سعيداً ثم قضى حياته في التعاسة والشقاء.

إن موضوع الفصحى والعامية في العربية ليس جديداً، بل على العكس تماماً، إنه موضوع قديم كل القدم، ولم يبق أحد لم يدل بدلوه في هذا السياق. وعلى الرغم من أن هذا الموضوع لا يمت للموضوع الذي بين أيدينا اليوم بأية قربى، إلا أن عنوانه تشتم منه رائحة النزاع تلك، بخاصة إذا ما اطلع عليه غير المختصين بالعلوم اللغوية، فهؤلاء الآخرون يدركون تماماً أن دراسة اللهجات هي دراسة علمية أقرها الدرس اللغوي القديم والحديث؛ العربي والغربي على حد سواء ويستطيع الباحث الذي يتسم بالموضوعية والجدية أن يقدم خدمات شتى للغة المشتركة من خلال دراسة هذه الفروقات التي تطرأ

على الاستخدامات اليومية التي لا مناص من معرفتها وذكرها وتحليلها تحليلاً علمياً دقيقاً، لتعرف طبيعة اللغة العربية وخصوصيتها ومكانتها بين لغات العالم ... وإذا كان اللغويون القدامى قد عزفوا عن دراسة اللهجات بالمعنى المألوف لدينا اليوم، فإنهم غاصوا في تحليل هذه الظاهرة في أطر الدرس النحوي والصرفي على اعتبار أن هذه اللهجات هي لغات. فها هو سيبويه يذكر كيف كان التميميون يراعون القياس في كسر أوائل الأفعال المضارعة، على لغة من قال تعلم وتِعلم، بالكسر حسب لغة قيس وأسد وربيعة وعامة العرب، وأما أهل الحجاز وقوم من هوازن وأزد وبعض هذيل فيقولون تَعلم، والقرآن عليها.

ويعترف من بعد ابن جني بأن التميمية أكثر مراعاة للقياس من القرشية، وحديثه عن (ما) التميمية معروف ومذكور مفصلاً في خصائصه الذي يحتوي على معلومات مهمة في تداخل اللغات وقصة الصقر والسقر والزقر معروفة أيضاً و سنذكرها لاحقا.

ولعلنا لسنا بحاجة للتذكير بمسألة (ليس الطيب إلا المسك)، والاختلاف بين الضاد والظاء، أو بين الطاء والتاء، أو بين الصاد والسين، والقاف والكاف.

إن دراسة خصائص اللهجات العربية هي التي قادت علماء النحو وأئمة القراءة كأبي عمرو بن العلاء والكسائي وغيرهما، إلى تأمل أصوات اللغة العربية الموحدة، واستنباط قواعدها، وبالتالي ليس كل دراسة تخص اللغة \ اللهجة هي دراسة خائنة أو عميلة أو على أقل تقدير منقصة للفصحى، لأن اللغة جُمعت في الأصل عن بعض القبائل، واستثني من الجمع عدد لا بأس به من القبائل العربية، ولقد "اتخذ جامعو اللغة موقفاً مختلفاً عن موقف الباحث اللغوي الحديث، فقد نظروا إلى هذه اللهجات وقاسوها بمعيار اللغة الفصحى، واعتبروا أي اختلاف عنها خروجاً على النمط الصحيح، وخروجاً على الضوابط، وفساداً لغوياً، ومن ثم أهملوا تلك اللهجات التي أصبح البون بينها وبين الفصحى شاسعاً، ولم ينظروا أو يهتموا إلا باللهجات التي تقترب في خصائصها من العربية الفصحى، وهذه هي لهجات الحجاز وتميم وهذيل وطيء" (9).

ولعل هذه الطريقة في التعامل مع ظاهرة اللهجات هي التي حدت ببعض الباحثين المحدثين إلى الذهاب بعيداً في تسمية هذه اللغة (أي اللغة الفصيحة) باسم (اللغة المكتوبة الأقدم)، نظراً للاختلاف الكبير القائم بينها وبين لغة الناس اليومية.

صحيح أن اللغويين القدامى شغلوا باللغة الأدبية الفصيحة التي نزل بها القرآن، وصيغت بها الآثار الأدبية في الجاهلية والإسلام، ولكن إذا أردنا الحفاظ على اللغة العربية التي وصلت إلينا بقواعدها ومقاييسها وخصائصها، فإنه يتوجب علينا أن ندرسها بعيداً عن التناقضات التي وقع فيها لغويو الجمع والاستقراء، وإلا فسوف نقحم على اللغة الفصيحة خصائص اللهجات المتباينة بوجوهها المتعددة، كما فعل النحويون عندما اعتمدوا على قواعدهم بشواهد من كل ما سمعوا من كلام العرب؛ فهذه قاعدة تستند إلى كلام رجل من قبيلة تميم، وتلك مسألة تقوم على كلام رجل من قريش، وهذه ثالثة لكلمة قيسي، ناهيك عن الشواهد الشعرية وغيرها (10).

وإذا كان ثمة من ثغرات في الدرس النحوي- كما ذكرنا سابقا -تجعل تعلم العربية الفصيحة أمراً غير يسير للناطقين بالعربية، بله غير الناطقين بها، فمرد ذلك برأينا هو هذه الانتقائية التي اعتمد عليها اللغويون القدامى في جمع اللغة، واستقرائها، واستنباط قواعدها.

صحيح أن قضية العاميات لا تعد عيباً بحد ذاتها، باعتبارها نمطاً من الاستخدامات اليومية للغة، ولكنها تصبح خطراً محدقاً باللغة وأهلها إذا ما عممت وقعدت، ولا نظن أن أحداً لم يسمع بتلك الدعوات القديمة والحديثة، الغربية والعربية، لتقعيد العاميات العربية، حتى يأتي يوم يصبح فيه العربي المصري

غير العربي السوري، والعربي اللبناني غير العربي العراقي، ناهيك عن الاختلافات التي قد تحدث في لغة البلد الواحد، ولا نبالغ إذ قلنا لغة الحي الواحد ... وهذا حلم كل حاقد على هذه الأمة وتراثها وحضارتها، لذا يتوجب علينا أن ندرس هذه الثنائية دراسة علمية وموضوعية، مستوحاة من طبيعة اللغة وخصوصيتها؛ فالعامية في العربية كما أسلفنا متفرعة من الفصحى، وهي في ذلك لا تتقاطع مع اللغات الأوربية التي تقطعت أصولها حتى باتت في هيئتها الجديدة لا تمت بصلة إلى اللغة اللاتينية، مع أنها ترجع في الأصل إليها. هذا ما حدا ببعض اللسانيين الغربيين بالنظر إلى اللغة العربية ولهجاتها من هذه الزاوية، ووقعوا بخطأ فادح من خلال إدراج العربية ضمن اللغات المنقطعة عن اللغة الأم، ولذلك فإن دراستها بشكل يعزلها عن النسق الداخلي لتطور اللغة يخرج بها عن سياقها العام، وهذا أمر يخل بالشرط العلمي في الدرس اللغوي. ذلك لأن اللغة ليست أداة مجردة لاستعمال يقوم خارج المجتمع الذي نشأت فيه، وهي ليست فردية أيضاً. إنها ظاهرة اجتماعية كما قال سوسور (اللغة مؤسسة اجتماعية)، ولذا تجب دراستها بما لها من علاقات بنيوية ووظيفية مع مجمل الإنتاج اللغوي للمؤسسة الاجتماعية التي تستعملها وقد فعل هذا ابن جني، ولذا نراه يقول: (الناطق على لسان لغة من لغات العرب غير مخطىء)، ولعل تعليق ابن جني على حكاية الأصمعي حول الرجال الذين اختلفوا على تسمية الصقر يشرح الموضوع ويفسره تفسيراً علمياً دقيقاً.

خاتمة

اتكاءً على ما سبق نرى أن الاستخدام الفردي لثنائية الفصحى والعامية، لا يعد بأية حال، استخداماً مزدوجاً، وبتعبير آخر، فإن كل متكلم بالعربية، ومتعلم لها، يدرك تماماً أن بمقدوره استعمال نمطين لغويين للتعبير عن أغراضه في المجتمع الذي ينتمي إليه، وهذان النمطان من بنية لغوية واحدة، وبالتالي فإنه لا يوجد ازدواجية لغوية – كما ظن بعض اللسانيين الغربيين – في العربية، بل إنها ثنائية، والأمران مختلفان تماماً. الازدواجية (بيلنغويسم) تعني وجود لغتين متمايزتين كالعربية والفرنسية مثلاً و (كل فرد يتدبر أمره بشكل ملائم عبر لغة ثانية يعتبر مزدوج اللغة. يوجد إذن تماثل بين ازدواجية اللغة، والمعرفة بلغة واحدة، أو بلغات أجنبية عدة (11)

وإذن فإنه من الخطأ - بناءً على هذا التعريف – اعتبار الفصحى والعامية في العربية ازدواجية لغوية، بينما يمكن اعتبارها ثنائية تندرج في إطار الاستخدامات اليومية لأشخاص انتشرت لغتهم في رقعات مكانية واسعة ، فكان العامل الجغرافي والاجتماعي والثقافي سبباً في هذا التطور الذي طرأ على اللغة من دون أن نفهم من كلمة / التطور/ التقدم والازدهار، ولكن من دون أن نفهم أيضاً أن التطور هو قطيعة وانفصال ... فأصوات العامية قريبة إن لم تكن قرينة الأصوات الفصيحة، والتركيب النحوي في العاميات موازٍ للتركيب النحوي في الفصحى، والأداء الوظيفي واحد أيضاً، أما إذا ابتعدت بعض اللهجات عن الأصول فإن الأمر لا يتعدى طبيعة اللغة وحياة الألفاظ، فثمة ألفاظ تموت وأخرى تتبدل وتتغير دلالاتها، ويلعب السياق دوراً رئيساً في التطور الدلالي ... ولكن، مهما كان من أمر فإن القضية لا تتعدى حدود هذه الثنائية اللغوية.

إن الطفل الذي ينشأ في بيئة لغوية فصيحة، سوف يتكلم اللغة الفصيحة، ويكفي لإثبات ذلك أن نتأمل ظاهرة تعليم العربية لغير الناطقين بها، فمن تعلم العربية في معهد تعليم لغات مصري، سيتكلم العربية، أما من تعلم اللهجة المصرية في معهد آخر، فإنه سيتكلم العامية المصرية، وقس على ذلك ما شئت من الأمثلة.

وبالنتيجة فإنه لا مجال للقول إن العامية أسهل من الفصحى وأيسر، و إن تبسيط وتوضيح التعبير باللغة العربية الفصيحة مهمة التعليم وأجهزة الإعلام المكتوبة والمنطوقة والمرئية والمسموعة، و على

الحكومات دعم هذه المؤسسات، ومدها بكل ما يلزم لتطوير مناهجها و تحديثها، و من بعد مراقبتها و محاسبتها .

إن للدول و الحكومات دور أساسي و محوري في الارتقاء باللغة عبر دعم المنظمات و الهيئات و الإدارات و مراكز البحوث العلمية و دور النشر و الترجمة و الوزارات المعنية و الباحثين الأكفاء، و المساهمة في وضع الخطط و البرامج و المناهج التي تنهض باللغة و تعزز مكانتها في المجتمع، و من دون أن نقلل من أهمية العناية بالبنى التحتية للمدن، عليهم أن يولوا الإنسان و بناء الأجيال أعظم الاهتمام، و هل يميز الإنسان و يمايزه عن غيره من المخلوقات أكثر من اللسان؟

الهوامش

1 صالح بلعيد، تعميم استعمال اللغة العربية في الجزائر، مجلة التعريب، المركز العربي للتعريب و الترجمة و التأليف و النشر، العدد، 16، 1998، دمشق، ص، 35.

2 ينظر محمد إسماعيل بصل، مدخل إلى معرفة اللسانيات، دار المتنبي، دمشق،1997

3 ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، د.ت، ص، 362

4 عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1984، ص، 34

5 عبد الكريم مجاهد، من ثغرات الدرس النحوي عند العرب، حوليات الجامعة الكويتية، 1995، ص، 79

6 أندريه رومان، في تطور اللغة العربية، حوليات الجامعة التونسية، تونس، 1981، ص، 109

7 ممدوح خسارة، ليس بالنحو وحده نتعلم اللغة، بناة الأجيال، دمشق، العدد 29، 1999، ص، 111

8 ابن جني، الخصائص، ج، 1، ص، 374

9 محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، القاهرة، 1992، ص، 225

10 صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، 1973، ص، 66

11 محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، بيروت، 1972، ص، 325